الأديب

معين بسيسو

معين بسيسو: دراسة في الأدب الثَّوري[1]

سامي إدريس*

سيرة شاعر المقاومة اليساري الماركسي العلماني:

ولد الشاعر المناضل الشُّيوعي اليساري، شاعر الثَّورة والشَّعب، معين توفيق سيِّد خليل بسيسو، في غزَّة عام 1926[2]. تلقَّى دراسته الابتدائيَّة في حي الشَّجاعيَّة بمدينة غزَّة، ودرس عامًا واحدًا في مدرسة المطران بعمَّان، وفي كليَّة غزَّة الوطنيَّة درس المرحلتين الإعداديَّة والثَّانويَّة (1942-1948)، ثم ارتحل إلى القاهرة، وهناك التحق بالجامعة الأمريكيَّة، فدرس اللُّغة الإنجليزيَّة (1948-1952). وتخرَّج من قسم الصَّحافة، وكان موضوع رسالته "الكلمة المنطوقة والمسموعة في برامج إذاعة الشَّرق الأدنى" وتدور حول الحدود الفاصلة بين المذياع والتِّلفزيون من جهة والكلمة المطبوعة في الصَّحيفة من جهة أخرى. وفي نفس عام تخرُّجه 1952 أصدر ديوانه الأوَّل **"المعركة"**. ولقد لاحقه البوليس الملكي المصري وهو يقوم بمحاولته طباعة هٰذا الدِّيوان واحتمى ببعض أصدقائه أدباء الثَّورة في مصر أمثال **عبد الرَّحمٰن الخميسي**. وقد صبغت المرحلة المصريَّة في حياته شعره، وذوقه، ومزاجه، فهو ترعرع ونما في أحضان الحركة الثَّقافيَّة في مصر، وارتبط بصداقات هي الأعمق في حياته، وبخاصَّة مع عبد الرَّحمٰن الخميسي، الشَّاعر والقاصّ والفنَّان والممثِّل والمخرج السِّينمائي.

---

* باحث وشاعر من مدينة الطيبة.

1- الأدب الثَّوري هو الأدب المحرِّض على الثَّورة أو المتولِّد عن الثَّورة، ويكون محرِّضًا على الثَّورة عندما تمتلك النُّخبة المثقَّفة رؤية واضحة ومواقف موحَّدة ومؤثِّرة في المجتمع، بينما يكون الأدب الثَّوري متولِّدًا عن الثَّورة في حال غياب أو ضعف دور النَّخبة المثقَّفة في المجتمع. (حسام عقل، جامعة عين شمس). **إنَّ أدب معين بسيسو هو أدب يخلق الواقع وليس تابعًا له، فينطبق عليه تعريف الأدب الثَّوري. أدبه أدب تثويري وتحريضي.** (انظر: الدِّيك، نادي ساري، **المشهد الشِّعري في فلسطين**، (الحياة الثَّقافيَّة، العدد 5885، 2012).

2 - بعض المصادر تثبت تاريخ ميلاده كالتَّالي 10/10/ 1927.

ودائمًا تكلَّم بحبّ عن الخميسي، وهو الذي استضافه مرارًا في (بيروت) وقدَّمه، وعمل على إعادة طباعة أعماله الشِّعريَّة. كذٰلك الخولي وحسن التِّلمساني ورفاقهم.[1]

بدأ نشر قصائده التحرُّرية عام 1944 في صحيفة الاتِّحاد والحرِّيَّة، مع شاعر فلسطين المرحوم **عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)** نشر في الحرِّيَّة اليافاوِّية أوَّل قصائده عام 1946.

انخرط في العمل الوطني والدِّيمقراطي مبكِّرًا، ممَّا أدَّى إلى اعتقاله من قبل النِّظام النَّاصري "الوطني" لأكثر من مرَّة، ومع ذٰلك فقد ظلَّ معين بسيسو يحترم المرحلة النَّاصريَّة، من حيث أنَّ الحكم النَّاصري كان في العمق معاديًا للاستعمار... رغم تنكيل ذٰلك النِّظام بالتَّقدميِّين والشُّيوعيِّين[2]. ولم تشكِّل مسألة السِّجن في عهد الرَّئيس عبد النَّاصر عقدة سلبيَّة لديه، بل كان من الوفاء لعبد النَّاصر بحيث رثاه، وعرف أنَّ ما يجمع بين التَّقدميِّين أكثر ممَّا يفرِّقهم، حتَّى لو كانت هناك حالات احتكاك خشنة كالسِّجن والاعتقال، فمن المعروف أنَّ مُعينًا كان عضوًا في الحزب الشُّيوعي، وكان الحزب الشُّيوعي محظورًا في عهد عبد النَّاصر، ولٰكن هٰذا لم يمنع الوعي المتقدِّم لدى معين بسيسو من الانتباه إلى أن عبد النَّاصر زعيم وطني، لذٰلك فإنَّ بوصلته لم تخطئ أبدًا.

---

1 - يقول الشَّاعر معين بسيسو في مقابلة صحفية :"وفي القاهرة تمَّ طبع أوَّل ديوان لي واسمه "**المعركة**" هٰذا الدِّيوان صدر في اليوم التَّالي لحريق القاهرة عام 1952. وبعد ذٰلك بدأ البوليس الملكي في التَّفتيش عن صاحب الدِّيوان، فاختفيت في بيروت في حماية الأصدقاء الرَّسام حسن التِّلمساني، والمحامي الكاتب لطفي الخولي والكاتب عبد الرَّحمٰن الخميسي وبعد قيام ثورة 23 يوليو عدت إلى غزة وعملت فيها مدرِّسًا، حيث بدأت ملاحقة البوليس المصري لي ثانية فسافرت إلي العراق .." (انظر: بسيسو، **دفاتر فلسطينيَّة**).

2 - ظلَّ معين بسيسو شيوعيًّا حتَّى رحيله، ولٰكنه لم يكن متعصِّبًا، فقد كتب شعرًا جميلًا في **جمال عبد النَّاصر**، رغم أنَّه سجن في مصر مع مئات الشُّيوعيِّين، وهو رغم أنه على النَّقيض مع (الإخوان المسلمين)، سار هو وشيوعيُّو غزّة، والقوميُّون، كتفًا لكتف، معًا، يتقدَّمون الجماهير، رافضين التَّوطين، مطالبين بالسِّلاح للمقاومة. في مذكِّراته (دفاتر فلسطينيَّة) يسرد معين ملامح تلك المرحلة في منتصف الخمسينات، ويقدِّم رموز (الإخوان المسلمين) بكلِّ الاحترام، والإنصاف، رغم الخلاف الفكري، معتزًّا بروح الوحدة الوطنيَّة. لقد حافظ شاعرنا الكبير على صلاته الحميمة مع كلِّ مناضلي تلك المرحلة حتى أيَّامه الأخيرة...

عمل في الصَّحافة، ثم مدرِّسًا في العراق عام 1952، وقد أُخرج من العراق عام 1953، بسبب بعض النَّشاط السِّياسي في عهد نوري السَّعيد. حيث كان على صلة وثيقة بالحركة الوطنيَّة، وقيادة الحركة التَّقدميَّة. في تلك الأثناء عاد معين بسيسو من العراق إلى القطاع، ليصبح الشَّخصيَّة المركزيَّة الجديدة في حياة الحركة الشُّيوعيَّة، وعلى مدى سنوات طوال كان معين بسيسو شيوعيًّا وعضوًا في الحزب الشُّيوعي العراقي، وصل إلى أن أصبح أمينًا عامًّا للحزب الشُّيوعي الفلسطيني في قطاع غزَّة. وفي عام 1988 عندما توحَّد الشُّيوعيُّون الفلسطينيُّون في حزبهم الموحَّد، أعلن بسيسو ذٰلك من على منبر المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد بالجزائر حينها، وظل معين عضو اللَّجنة المركزيَّة للحزب حتَّى وفاته.[1] لٰكنَّه كان أقرب إلى حركة فتح رغم أنَّه من منبت يساري ومن الحزب الشُّيوعي تحديدًا، ولٰكنَّه كان أكثر صداقة مع أعضاء الحركة وقياداتها وكلِّ من فيها. وقد تمتَّع بقدرة فائقة على مخاطبة الجماهير وإلهاب حماسها، فكانت الجماهير تردِّد وتحفظ أقواله:

"من لم تودِّع بنيها بابتسامتها / إلى الزنازين لم تحبل ولم تلدِ". /
وتحفظ عن ظهر قلب: / "أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في
الكفاحِ / واحمل سلاحي لا يخفك دمي يسيل من السِّلاحِ".[2]

كذٰلك فقد تمتَّع بقدرة خارقة على الإبداع الشِّعري. فلتتفكَّر في هٰذا النَّصِّ **الذي** يكشف الرُّؤية المعمَّقة عند الشَّاعر معين بسيسو صاحب التَّجربة النِّضاليَّة المثيرة، والتَّجربة الشِّعريَّة المتمكِّنة من أدواتها ومبناها وتراكيبها.[3]

1- أبو هاني، كوثر، معين بسيسو، ربع قرن و" الأشجار تموت واقفة"، (الأخبار اللُّبنانية/ شباط 2009).

2 - أبو شاور، رشاد، الشَّاعر معين بسيسو (مقال، موقع اللُّغة العربيَّة).

3 - حامد، محمود، الشَّاعر معين بسيسو، مؤسَّسة القدس للثَّقافة والتُّراث.

"استشهد الماء ولم يزل يقاتل النَّدى / استشهد الصَّوت ولم يزل/ يقاتل الصَّدى/ وأنت بين الماء والنَّدى/ وأنت بين الصَّوت والصَّدى/ فراشةٌ تطير حتَّى آخر المدى.."[1]

وقاد معين الشُّيوعيّين في مرحلة من أهمّ مراحل النِّضال الوطني في تاريخ قطاع غزَّة، وهي المرحلة التي تمَّ فيها إفشال "**مشروع التَّوطين في سيناء**" الذي أدَّى إلى مظاهرات 28/ فبراير/1955م. كان من الشُّعراء الذين يسيرون في مقدِّمة المظاهرات، فبرهن على مصداقيَّة القول الشِّعري المقترن بالفعل، ومارس دور الشَّاعر التَّنويري التَّثويري المضحِّي.

سجن في المعتقلات المصريَّة بين فترتين، الأولى من 1955 إلى 1957 والثَّانية من 1959 إلى 1963.[2] فقد أُدخل السِّجن الحربي في القاهرة، ووقع العدوان الثُّلاثي على مصر، وهو لا يزال في الزِّنزانة. بعد خروجه ظلَّ في مصر يناضل ضمن صفوف الحركة الوطنيَّة التَّقدميَّة، ثمَّ يعود إلى غزَّة ليتابع النَّضال مع الجماهير، ويواصل بناء الكوادر الثَّورية. ثمَّ يُعاد إلى سجن الواحات في مصر، ليبقى هناك أربع سنوات كاملة.

من هٰذا السِّجن يبعث معين بسيسو بقصيدة إلى شقيقته الوحيدة سهير فيقول:[3]

"يا سهير/ أنا في المنفى أغنِّي للقطار/ وأغنِّي للمحطَّه/ أيُّ هزَّه/ حينما تومض في عينيَّ غزه/ حينما تلمع أصوات الرِّفاق"

1- الأعمال الشِّعريَّة الكاملة"، (مجلَّد واحد)، دار العودة، بيروت، 1979م (خذي جسدي كيسًا من رمل).

2- يقول بسيسو في نفس المقابلة: أثناء وجودي في السِّجن حاولت الهرب ولٰكنَّ العمليَّة فشلت. وكان عليَّ أن أرى مشهدًا سيظلُّ محفورًا إلى الأبد بين عيني، صورة لأحد المسجونين حليق الرَّأس مربوط بالحبال إلى عامود ورأسه مدهون بالعسل الأسود ... المسجون كان مرفوعًا إلى أعلى العامود وبين فترة وأخرى كانت تنقض حدأة تنقر رأسه.. كان المنقار يضرب رأسه.. كان المنقار يضرب في العسل ورأس السَّجين وصراخه يرتفع وكانت إدارة السِّجن تنذرني بنفس المصير ولٰكنِّي تعذَّبت عذاب السَّجين ووصلتني رسالة السَّجَّان وبقيت في بريد الذَّاكرة حتى اليوم. (انظر: www.kanadeelfkr.com)

3 - معين بسيسو بين السُّنبلة والقنبلة، ص. 12.

عاش مطاردًا في المنافي، متنقِّلًا بين المطارات والعواصم العربيَّة والأجنبيَّة، مواصلًا المقاومة والإبداع الشِّعري والأدبي الخصب، وخلال حصار بيروت كان يكتُب المقالات اليوميَّة لنشرة "المقاومة".

الرَّحيل عن بيروت بعد معارك طاحنة مع محمود درويش

أعلن معين بسيسو في جريدة "الدِّفاع" (أغسطس 1970)، التي كانت تصدر في عمَّان، أنَّه ينتمي بشهادة ميلاده إلى "فتح"! وقبلها (1969/11/2) كان أعلن الأمر نفسه، وإنْ بمفردات مختلفة، في المركز الثَّقافي السُّوفييتي بالإسكندريَّة. بعد أن كان من ناصروه وتحيَّزوا إليه باقتراح "التَّيَّار" قد رفضوا عودته للحزب، بمجرَّد أن استأثروا بقيادته، ما أصابه بالمرارة.

في بيروت التحق معين بمكتب القائد العام للثَّورة، **ياسر عرفات**، وشهدت السَّنوات السِّتُّ التي قضاها معين هناك **معارك طاحنة بينه وبين محمود درويش**، في المزاحمة على رضى عرفات. وإن أصدر أهمُّ شاعرين فلسطينيَّين (معين ومحمود) قصيدة مشتركة، أثناء محاصرة القوَّات الإسرائيليَّة لبيروت، في اجتياح 1982. وحين دخلت القوَّات الإسرائيليَّة عاصمة البهجة، بيروت، غداة مقتل بشير الجميِّل (5/ 1982/9) انطلقت تفتِّش عن معين بسيسو، حتى أنها لم تتوان عن خرق حرمة السَّفارة السُّوفييتيَّة، لٰكن معين كان قد خرج إلى اليونان في سفينة عرفات...[1]

عمل معين بسيسو في جريدة الثَّورة السُّوريَّة 1967- 1969، إضافة إلى كتابته للبرامج المتنوِّعة للإذاعة السُّوريَّة حتَّى عام 1968، وفي عام 1969 سافر إلى مصر ليعمل في جريدة الأهرام، إضافة إلى كتابته للمسرحيَّات. وفي عام 1972 عاد إلى بيروت ليعمل في إطار الإعلام الموحَّد لمنظَّمة التَّحرير الفلسطينيَّة، ثمَّ استقرَّ في تونس حتَّى وفاته. كان عضوًا في

1- ياسين، عبد القادر ، **معين بسيسو .. النِّضال بالشِّعر والسِّياسة**، جريدة القاهرة : 14- 2-02 201.

الأمانة العامَّة للاتِّحاد العامّ للكُتَّاب والصحفيّين الفلسطينيّين، كما كان عضوًا في الأمانة العامَّة لاتِّحاد كُتَّاب آسيا وأفريقيا.[1]

تُرجم أدب معين بسيسو إلى كثير من اللُّغات منها: اللُّغة الإنجليزيَّة والفرنسيَّة والألمانيَّة والرُّوسيَّة، والإيطاليَّة والإسبانيَّة واليابانيَّة والفيتناميَّة والفارسيَّة. وحصل على العديد من الجوائز العالميَّة منها:

- جائزة اللُّوتس.... وقد شغل منصب نائب رئيس تحرير مجلة اللُّوتس التي يصدرها اتِّحاد كُتَّاب آسيا وأفريقيا ..
- وسام "درع الثَّورة " وهو أعلى وسام فلسطيني، وكان مسؤولًا للشُّؤون الثَّقافيَّة في الأمانة العامَّة للاتِّحاد العامّ للكُتَّاب والصَّحفيّين الفلسطينيّين. كان عضو المجلس الوطني الفلسطيني.

توفِّي أثناء تواجده في أحد فنادق لندن يوم 24/1/1984 شابًّا وعمره يناهز السَّابعة والخمسين إثر نوبة قلبيَّة حادَّة ودُفن في القاهرة بعدما منعت السُّلطات الإسرائيليَّة دفنه في غزة.[2]

معين بسيسو شاعر مقاومة

يرى النَّاقد المصري **غالي شكري** في معين بسيسو شاعر مقاومة، لأنَّ المقاومة تشكِّل الجوهر الشَّامل لشعره الذي قرَّر صاحبه منذ البداية أن يكون **شاعر مقاومة** على المستويين القومي والاجتماعي، وهٰكذا جاءت ثورته أشمل من ثورة زملائه في الوطن المحتلّ، وأعمق وأغنى من ثورة زملائه في المنفى. إنَّ مصر التي قضى فيها معين زهرة شبابه لم تكن له وطنًا ثانيًا، بل جزءًا لا ينفصل عن الوطن الواحد الكبير.[3]

1 - الخوالدة، ناصر محمَّد، معين بسيسو وقصيدة المتاريس. المعهد العربي للبحوث والدِّراسات الاستراتيجيَّة kenanaonline.com/users/MOMNASSER/posts/285161

2- ولكون الشَّاعر ماركسيًّا علمانيًّا تحاول الأصوليَّة في غزَّة التَّعتيم عليه إعلاميًّا.

3 - الأسطة، عادل، شعر المقاومة الفلسطينيَّة في النَّقد الأدبي في العالم العربي.

وقد صدر معين بسيسو، في نصوصه، عن الأيديولوجيَّة الشُّيوعيَّة فكان عضوًا في الحزب الشُّيوعي الفلسطيني وواحدًا من مؤسِّسيه.

إنَّ القضيَّة الأساسيَّة في شعر معين قضيَّة الوطن الدَّامي الممزَّق،. قضيَّة الشَّعب الفلسطيني، فهو من الشُّعراء الذين حملوا دمهم على راحاتهم ومضوا في مقدِّمة الصُّفوف بمصداقيَّة القول المقترن بالفعل. كان معين يتقدَّم جموع الفلسطينيِّين في قطاع غزَّة الرَّافضين للتَّوطين في صحراء سيناء، والمطالبين بالتَّسلُّح للتَّصدِّي لاعتداءات الاحتلال الإسرائيلي، فهو صاحب الكلمة الشُّجاعة في وجه الظُّلم والجور والطُّغاة.

كتب بسيسو نصوصًا أتى فيها على وصف حياة اللَّاجئين وما ألمَّ بهم، ولٰكنَّه في الوقت نفسه، عبَّر بوضوح، عن ثنائيَّة المستغِلّ والمستغَلّ، ووقف إلى جانب الأوَّلين وتعاطف معهم. يجمع معين بسيسو ما بين أولئك الأدباء الذين كتبوا عن المنفى والوطن، الماضي والحاضر، وأولئك الذين كتبوا عن المستغِلّ والمستغَلّ أساسًا. لقد كان بسيسو فلسطينيًّا وأمميًّا بالدَّرجة نفسها وبالمقدار نفسه أيضًا. حارب من أجل عودة اللَّاجئين إلى بلادهم، وغنَّى من أجل مجتمع شيوعي، وظلَّ وفيًّا، حتَّى مماته، لحق الفلسطينيِّين ببلادهم والشُّيوعيَّة. وقد انعكست فلسطينيَّته وأمميَّته في أشعاره انعكاسًا متوازيًا. وتعتبر دواوينه خير شاهد على هٰذا، سواء تلك التي كتبت قبل عام 1967 أو تلك التي كتبت بعده، وإن برز الحسُّ الفلسطينيُّ في ديوان "**الآن خذي جسدي كيسًا من رمل**" (1976) بروزًا واضحًا. [1]

"ارسمي من دمي ومن أصفادي/ يا أيادي خريطة لبلادي[2]/
الضَّحايا قد عانقتها الضَّحايا / والأيادي تشابكت بالأيادي/ فنهوضًا
إلى النِّضال نهوضًا / لا يعيش البركان تحت الرَّمادِ".

1- الأسطة، عادل، **فلسطينيَّة الأدب والأديب.**

2 - يعني بالأيادي مجموع القوى الوطنيَّة الفاعلة في حينه ويدعوها إلى التَّوحُّد ورسم الخريطة معًا. (ونلاحظ أنَّ الشَّاعر يتبع في هٰذه القصيدة طريقة الشِّعر العمودي الكلاسيكي). وقد كتب نفس القصيدة على شعر التَّفعيلة.

الخطابيَّة والمباشرة في شعر بسيسو

كان معين بسيسو يكتب للجمهور وأمام الجمهور مرتجلًا مهيِّجًا تهييجًا وتحريضًا خطابيًّا. في القصائد التي تبدأ بِـ (يا أخي) أو توجيه فعل الأمر، أو زرع "لا" النَّاهية.

لقد تميَّز شعر معين بالتَّدرُّج من اللَّحظة الخطابيَّة إلى (السِّرياليَّة الشَّعبيَّة) إذا جاز التَّعبير، فمعروف أنَّ السِّرياليَّة تعطي الفنَّان أو المبدع فرصة في الإيغال والتَّعبير بعيدًا عن الذَّوق السَّائد، لٰكنَّه استطاع دائمًا أن يوجد مفاتيح للجمهور العادي، بحيث يلج من خلال هٰذه المفاتيح إلى عالم القصيدة، لذٰلك لم تكن هناك شكوى من غموض قصائد معين حتَّى في المرحلة السِّرياليَّة.

ومعين في تدرُّجه بالشِّعر من شعر التَّفعيلة إلى الخطابي إلى الرمزي المفتوح، إلى الاستفادة من لغة المسرح والاستفادة من لغة التُّراث، فقد جمع كلَّ هٰذا في ختام العمر في قصيدته المطوَّلة التي تستطيع أن تقف فيها على كلِّ ما مرَّ به من تجارب، فوفِّق بهٰذا الاسم "**القصيدة**"[1] على طريقة العرب، كأنَّه يقول هٰذا بيت القصيد، فإنَّه وضع فيها خلاصة جهوده الفنِّيَّة إضافة إلى السِّياسَّة.

يبدأ "القصيدة" بـِ : "سفرٌ... سفرْ" ولو اكتفى بذٰلك لما كان قليلًا . فالسَّفر الإجباري هويَّة الفلسطيني. والقصيدة تعجُّ بالمداخلات الغنيَّة التي تحتاج دراسة مستفيضة.[2]

لٰكن معين بسيسو يفتتح مجموعته الشِّعريَّة "**الأشجار تموت واقفةً**" بهٰذا الشَّجن الجديد، حيث لا خطابة ولا أجراس ولا جلجلة رعود، يظهر ذٰلك من عنوان المجموعة:

"كإلٰهٍ من غير يدينْ / تتبعني يا وطني وغراب البينْ / يعرج قدَّامي / ويصيحُ إلى أينْ / يا طالبَ رأسِ القيصرْ / يا حافيَ القدمينْ".[3]

1 - انظر قصيدة "**القصيدة**" في مقتطفات من شعر معين بسيسو في الدِّراسة.

2- معين بسيسو بين السُّنبلة والقنبلة، ص 49-51 (مقال أحمد دحبور، تونس، 1986).

3 - الأشجار تموت واقفة.

المعجم الشِّعري عند معين بسيسو

إنَّ أدب معين بسيسو هو أدب يخلق الواقع وليس تابعًا له، فينطبق عليه تعريف الأدب الثَّوري. أدبه أدب تثويري وتحريضي، يقول نادي ساري الدِّيك: [1]

"... لأنَّ الأدب أصبح تابعًا للواقع وليس خالقًا له، ففي السِّتينيَّات والسَّبعينيَّات كنَّا نقرأ تأمليًّا فكريًّا وثوريًّا تعبويًّا، أمَّا الآن فنحن لا نقرأ إلَّا حالة ضبابيَّة، وإن وجدت نصوص جيِّدة فهي إمَّا مغيَّبة أو أصحابها مغيَّبون عن المشهد".

ويضيف الدِّيك "من المفروض ألَّا يكون الأدب انعكاسًا للواقع، ولٰكن خالقًا ومفعِّلًا له، وإذا كان الأدب حالة من تبعات الواقع فهٰذا انكسار للأدب وليس أدبًا....

الشعر عند معين هو دعم لوجستي، كالذَّخيرة، كالتَّموين، به يصمد المحاربون، فالرُّوح بحاجة للغذاء، والشِّعر غذاء الرُّوح، به تتقوَّى وتنتصر...".

يقول النَّاقد السُّوري محيي الدِّين صبحي إن شعر معين ينطبق عليه مصطلح الشِّعر الخشن الذي ورد في كتاب (الشِّعر) لأرسطو، وهٰذا ما جعل الكتابة عنه صعبة رغم سهولة وبساطة هٰذا الشِّعر...[2]

الرَّصاص والبنادق والخيام هي ألفاظ كثيرة الورود وتتكرَّر في شعر بسيسو

كذٰلك المقاومة، ولا مساومة، والشَّعب المكافح، والمناضل، واليد المكبّلة، والسِّجن والسَّجَّان. والأبطال والمعارك، والموت والدِّماء. والعدوّ. لٰكنَّه في السَّبعينات لجأ إلى استخدام أدوات العصر اليوميَّة ودسَّها في جسم القصيدة: الأسطوانة، السِّينما، السَّيَّارات والطائرات، السِّياحة وغيرها. واستفحلت علاقته بالميثولوجيا: الحوت والقمر وألف ليلة وليلة، السَّيَّاف مسرور. وارتفعت لديه وتيرة الهجاء والسُّخرية.[3]

1 - الدِّيك، نادي ساري، **المشهد الشِّعري في فلسطين**، (الحياة الثَّقافيَّة، العدد 5885، 2012).

2 - أبو شاور، رشاد (مقال).

3 - معين بسيسو بين السُّنبلة والقنبلة، ص44-45 (مقال، أحمد دحبور، تونس 1986).

نجد الشِّعر لدى معين بسيسو وسيلة من وسائل النِّضال. فكانت أعماله الشِّعريَّة من الأسس التي أرسيت عليها أعمدة الشِّعر المقاوم. لقد ساهم في بناء المشهد الثَّقافي الفلسطيني بفاعليَّة وتنوُّع، حيث إنَّه قدَّم ثلاثة عشر ديوانًا شعريًّا منها: ديوان "مارد من السَّنابل"، "قصائد على زجاج النَّوافذ"، "المسافر"، "المعركة"، "حينما تمطر الأحجار"، "الأردن على الصَّليب"، "فلسطين في القلب"، "الأشجار تموت واقفة"، "جئت لأدعوك باسمك"[1]

"قد يقال بأنَّ هٰذا الشِّعر فيه مباشرة، وتحريض آني، والحقُّ أنَّ تلك المباشرة حملتها مواهب أصيلة ذكيَّة، عرفت كيف تغوص في عمق الحدث، وتستخرج منه قيمًا إنسانيَّة جوهريَّة لا تموت مع الزَّمن. ما كان صدفة أنَّ عنوان أحد بواكير أعمال معين بسيسو هو (المعركة)، فشعراء فلسطين قديمًا وحديثًا يعيشون في المعركة، وفي نيرانها يكتبون، وهم يكتبون عن الوطن والشَّهادة والبطولة والتَّضحية والحبِّ والمنفى، والعودة التي ستتحقَّق، وهم يتأمَّلون في مصائر البشر والحياة والكون، فهم لا يغلقون على أنفسهم، وما هو بغريب أنَّ الفلسطينيِّين كانوا في مقدِّمة من ترجم عن الغرب روائع أدبية وفلسفيَّة...

معين بسيسو شاعر معركة واشتباك، يحيا ويتألَّق ويجول في الميدان، بين النَّاس في أتون المعركة... من عرفه في غزَّة رآه شاعرًا ومناضلًا في الميدان، يتقدَّم جموع الفلسطينيِّين الرَّافضين للتَّوطين في صحراء سيناء، والمطالبين بالتَّسلُّح للتَّصدِّي لاعتداءات المحتلِّين، وكانت آنذاك قد ازدادت على قطاع غزّة. إنَّه صوت معين بسيسو الذي تحدَّى قوَّات العدوان الثُّلاثي عام 56:

"قد أقبلوا فلا مساومة / المجد للمقاومة".[2]

جمال عبد النَّاصر في شعر معين بسيسو

بعد رحيل جمال عبد النَّاصر كتب معين قصيدة من القلب تحت عنوان:

قصيدة: " تحت صورة عبد النَّاصر"

حيث نرى أنَّ صورة عبد النَّاصر ظلت محفورة في ذهن الشَّاعر، فيقول:

1 - الأعمال الكاملة.

2- أبو شاور، رشاد، (مقال).

"هي ذي مصر/ طفل من بولاق / محمول فوق الأعناق / يرفع صورتك ولا يعرف أين / يسير / والحرِّيَّة / تتحسَّس بأصابعها / المرتعشة / أوراق جواز السَّفر / وأوراق الجنسيَّة".

وهٰذه الدَّلالة في عنوان القصيدة تلتقي مع دلالة أخرى أعمق غورًا وأكثر بعدًا في رؤيا بسيسو في قصيدته (**رسالة في زجاجة إلى جمال عبد النَّاصر**)[1] فبعدما كانت قصيدة صارت رسالة، والرِّسالة ينبغي أن تحمل أخبارًا من المرسِل إلى المرسَل إليه، وهي تشير في مجمل الأحوال إلى التَّواصل المعنوي في أقلِّ تقدير، ولا يتواصل فرد مع آخر إلَّا إذا كانت بينهما علاقة (رسميَّة أو شخصيَّة)، والعلاقة العامَّة التي نسجها عبد النَّاصر مع جماهيره، جعلت كلَّ عربي يشعر بأنَّ له علاقة خاصَّة معه، أمَّا لماذا في زجاجة؟ فمع أَّن الأمر منوط بالشَّاعر أوَّلًا، إلَّا أنَّ ذٰلك يشير إلى الخصوصيَّة التي يحتلُّها المرسَل إليه عند المرسِل، فالزُّجاجة عازل جيِّد لما بداخلها عمَّا بخارجها، وعليه يظلُّ مضمون الرِّسالة محفوظًا بطريقة لا يمكن أن يؤثِّر ما هو خارجها على ما بداخلها. وكأنَّ الشَّاعر أراد أن يقول إنَّ رسائل الفلسطينيِّين أو العرب، أو رسائل الإنسان في كلِّ مكان إلى عبد النَّاصر مهما حاول بعض النَّاس أن يغيِّروا محتواها، تظلُّ محفوظة ولا يؤثِّر ما يقولونه في تاريخه النِّضالي. ويدلِّل على ذٰلك مضمون القصيدة نفسها. وفي قصيدة ثالثة يتأكَّد المعنى والإحساس نفسه عند الشَّاعر، عندما يضع عنوانًا لقصيدته (**شهرزاد وفارس الأمل - جمال عبد النَّاصر**[2] أهي مصر حلم الفارس أم فلسطين أم الأمَّة كلُّها يمكن أن تكون شهرزاد؟ كلُّ ذٰلك يمكن أن يكون صحيحًا، فالفارس **عبد النَّاصر** (شهريار) يبحث عن شهرزاده، لا التي تسامره حتَّى يأتي الصَّباح فتسكت عن الكلام المباح، بل تلك التي يحلم بلقائها، لأنَّه الفارس الذي يتطلَّع إلى تحقيق الأمل، والأمل مرتبط في كل مرَّة بتطلُّع إنساني أرحب يتجاوز حدود الفرديَّة والشَّخصيَّة إلى الجماعيَّة وهمومها الواحدة، حتَّى صارت كأنَّها شهرزاد وصار الجميع كأنَّهم شهريار، ممثَّلين في الفارس (فارس الأمل) الذي يتطلَّع الجميع إليه محقِّقًا

1 - حنني، زاهر محمد الجوهر، **رثاء جمال عبد النَّاصر في الشِّعر الفلسطيني، جامعة القدس المفتوحة.**

2 -ن. م.

لتطلُّعاتهم التي يعجز عن تحقيقها الإنسان العادي، وهي بحاجة إلى فارس يمتلك كفاءات خاصَّة، وليس ذاك إلَّا جمال عبد النَّاصر.

الشَّاعر معين بسيسو تأخذه انفعالاته بموت **عبد النَّاصر** إلى رؤيا شعريَّة مرتبطة بفكر حاول عبد النَّاصر تجسيده من خلال حديثه عن آلام العروبة وآمالها، وفي مقدِّمتها جميعًا حرِّيَّة الإنسان التي تصبح بعد وفاة عبد النَّاصر – كما يرسمها بسيسو – عمياء لا هادي لها، تتحسَّس باحثة عن جنسيَّتها وانتمائها، وعن الذي رسم لها طريق الانتماء لهٰذه الأمَّة بالطَّريقة الصَّحيحة وهو جمال عبد النَّاصر "وكنت لها الجنسيَّة"، تلتقي هٰذه الصُّورة مع صورة كرسي الزَّعيم الذي مهما جاء بعده من زعماء يظلُّ شاغرًا، لأنَّه لن يوجد من يسدُّ مكان هٰذا الزَّعيم الذي أعطى لهٰذا الكرسي معنًى خاصًّا، حتَّى أنَّ الكرسي نفسه بقي فاغرًا فمه، مثل جرح مفتوح، لا توقف نزيفه أيَّ ضمادة، وكبر هٰذا الجرح حتَّى أصبح في حجم الهرم الأكبر، وحوله يلتفُّ نهر النِّيل كتنِّين أخضر، ولا نعرف من الخرافات ما يقول إنَّ لون التِّنِّين أخضر، ففي الصُّورة رسم جديد لتنِّين جديد، ومع أنَّ الصُّورة مرعبة إلَّا أنَّ اللَّون الأخضر خفَّف من هول الصُّورة، ليضعها بشيء من الطُّمأنينة في النُّفوس، وهٰذه الطُّمأنينة خلقها ذكر عبد النَّاصر، أمَّا عن ارتباطه باللَّون الأخضر في شعر بسيسو كما سنقرأه فيما بعد عند درويش، فنحن نعلم أنَّ اللَّون الأخضر قبل درويش وبسيسو هو دلالة رمزيَّة في حياة عبد النَّاصر وفكره. يقول بسيسو:

"والحرِّيَّة... / تتحسَّس بأصابعها المرتعشة... / أوراق جواز السَّفر،
وأوراق الجنسيَّة... / كنت جواز السَّفر، وكنت لها الجنسيَّة... /
والكرسي الشَّاغر يا عبد النَّاصر... / هٰذا الجرح الفاغر... / فمه،/
أكبر من كلِّ ضمادهْ... ".

كتابات معين بسيسو النَّثريَّة

في منتصف السِّتينات وجد نفسه في سوريَّا، احتلَّ موقعًا متقدِّمًا في جريدة الثَّورة المصريَّة آنذاك في دمشق، وهناك كتب زاوية يوميَّة فتنت القرَّاء السوريِّين بعنوان "**من شوارع العالم** "وللأسف فإنَّ هٰذه المقالات تحت هٰذا العنوان، لم تجمع في كتاب. أيضًا

يسجَّل لمعين إنتاجه غير الشِّعري أنَّه كتب **دفاتر فلسطينيَّة** على هيئة يوميَّات تسجِّل تاريخه منذ ولادته في غزَّة إلى عمله في العراق إلى ذهابه لدمشق وتعرُّضه للسُّجون.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه من روَّاد المسرح الشِّعري لا في فلسطين فقط، بل في الوطن العربي، وقد كتب العديد من المسرحيَّات التي أتيح لها أن تعرض على أيدي مخرجين كبار مثل "ثورة الزُّنج والعصافير تبني أعشاشها بين الأصابع" التي عرفت باسم الكرسي وغيرها من المسرحيَّات.

دفاتر فلسطينيَّة[1]

في "دفاتر فلسطينيَّة" يحكي معين عن تجربته في السُّجون المصريَّة (1964-1959)، ولٰكنَّه يأتي فيها على طفولته وحياة اللَّاجئين في غزَّة بعد العام 1948. وربَّما تكون هٰذه السِّيرة من أوائل السِّير الذَّاتيَّة الأدبيَّة في الأدب الفلسطيني. وهي أهمُّ ما كتبه معين في عالم النَّثر.

دفاتر فلسطينيَّة، كتاب يمكن أن يدرج تحت جنس السِّيرة الذَّاتية للشَّاعر، فعلى الرَّغم من أنَّ أكثر صفحاته تأتي على تجربة معين في السُّجون، إلَّا أنَّه أيضًا يكتب عن حياته طالبًا في مصر، ومعلِّمًا في قطاع غزَّة وفي العراق، كما يكتب عن طفولته وأمِّه وأبيه وأهله ورفاقه في الحزب الشُّيوعي. كان الكتاب صدر في العام 1978، وأعادت نشره دار صلاح الدِّين في القدس، ثمَّ أعادت منشورات شمس في المثلَّث طباعته، وقد ترجم إلى لغات عديدة، منها الرُّوسية، كما يذكر معين، والألمانيَّة.

ويرى عادل الأسطة[2] أنَّ "**دفاتر فلسطينيَّة**" كتاب مهمٌّ، لا لأنَّه يكتب عن تجربة شيوعي فلسطيني وحسب، وإنَّما لأسلوبه أيضًا، ففيه تنوُّع في الأسلوب، ربَّما لم يتحقَّق كثيرًا في نصوصنا النَّثريَّة. يسرد معين تارة بضمير الأنا، وطورًا بضمير النَّحن، وثالثة بالضَّمير: الأنا/ أنت، و النَّحن/ الأنتم، ويجرِّد من نفسه شخصًا يخاطبه. وينوِّع في صيغ الأفعال. وهو - أي الكتاب - مهمٌّ، لأنَّه كتاب نثري أنجزه شاعر، وربَّما احتاجت كتب النَّثر التي يكتبها شعراء إلى دراسة، ذٰلك لأنَّها نثر لا يخلو من الشِّعر، وربَّما تذكَّر المرء هنا مقولة التَّوحيدي التي

1 - بسيسو، معين، **دفاتر فلسطينيَّة**. دار الفارابي- بيروت 1978.

2 - الأسطة، عادل، **دفاتر معين الفلسطينيَّة** (مقال).

صدَّر بها درويش ديوانه "كزهر اللَّوز.. أو أبعد" (2005): "أحسن الكلام ما قامت صورته بين نظم كأنَّه نثر، ونثر كأنَّه نظم" وفوق هٰذا فإنَّ خيال الشَّاعر يبرز بروزًا واضحًا، ويأسر قارئه[1].

سيكتب معين عن إحراقه لأشعار الشَّاعر العراقي **محمَّد مهدي الجواهري**، لأنَّ الجواهري الشَّاعر الشُّيوعي كتب قصيدة مديح لوليِّ العهد في العراق في حينه "وكانت صدمة كبيرة لنا نحن الذين قرأنا الجواهري، فقرَّرنا في خليَّة الشَّامية وبالإجماع: حرق محمَّد مهدي الجواهري، كوَّمنا دواوينه وأشعلنا فيها النَّار..".

«88 يومًا خلف متاريس بيروت» و جماليَّة الإدهاش التَّحريضي

يعتبر هٰذا الكتاب سابقة أدبيَّة، حيث حوى أنواعًا أدبيَّة متعدِّدة فيضمُّ بين دفَّتيه المقالات التَّحريضيَّة النَّثريَّة واليوميَّات والقصائد. وما يميِّزه هو جماليَّة الإدهاش التَّحريضي.[2]

"وقد تضمَّن الفصل الأول «متاريس: جريدة المعركة- بيروت» ثلاثين نصًّا، بينها خمسة نصوص شعريَّة، يمكن عدُّها تطبيقًا لما وصفه بـ «المقالة القصيدة المركَّزة» أو «أدب المنشور»، وهي نصوص مرتجلة على هيئة شعارات منظومة بنبرة تحريضيَّة خطابيَّة أو ساخرة، تعتمد على الصُّورة البسيطة التي تُصاغ بجمل قصيرة وقاموس فقير نسبيًّا. ينشئ الشَّاعر معين بسيسو قصائده داخل جحيم الاجتياح، منشورات تحاكي في طموحها قصيدة «الحرِّيَّة» لإيلوار، التي نشرها في «نشرة المقاومة الفرنسيَّة التي كان اسمها- منشورات منتصف اللَّيل- ومن حيطان فرنسا كلِّها» ومثلما كانت «الحرِّيَّة» أنموذجًا شعريًّا لقصائده، كانت «منشورات منتصف اللَّيل» أنموذجًا لجريدة «المعركة»، لأنَّ «مجد الشِّعر وشرفه وكبرياءَه» كان هاجس معين بسيسو الرَّئيس في هٰذه اللَّحظة التاريخيَّة. إنَّه شعر ينزفه جبين الشَّاعر المنخرط بجسده مباشرةً في المعركة... شعرٌ ينتمي إلى خنادق المقاتلين الفلسطينيِّين واللُّبنانيِّين والسُّوريِّين الذين يواجهون الجيش الغازي، وإلى كيس رمل يقاوم الاحتلال!.

1 - شرفات، العدد 94، (أوس داود يعقوب، ظلُّ الغياب).

2 - دانيال، هادي، **جماليَّة الإدهاش التَّحريضي**... (موقع هادي دانيال).

مقالاته في جريدة «المعركة» التي كانت بئرًا من الصُّراخ التَّقريري والالتماعات الأدبيَّة الجارحة بجماليَّتها، لنقرأ مثلًا: «أن يطير النَّحل من جثَّة بيروت - أن يسرقوا العسل العالق بأرجله، وأن يكحِّلوا بالعسل عيونهم ويكتبوا قصائدهم العسليَّة عن بيروت وعن الفلسطيني الأخير، إنَّهم ينتظرون جثَّتنا، ونحن وراء متاريس في انتظار قنبلة العدوّ وجثَّته أيضًا»[1].

السَّهل الممتنع في "من قصائد الحصار" رسالة إلى جندي إسرائيلي..»

في الفصل الثَّالث والأخير من "**88 يومًا خلف متاريس بيروت** "الذي حمل عنوان «من قصائد الحصار»، وتضمَّن ثلاث قصائد، الثَّالثة بعنوان «هذا الفلسطيني.. اسمه ياسر عرفات»، والثَّانية «ولدي محمَّد» وهما أنموذجان لقصيدة معين بسيسو في آخر صيغها المتطوِّرة، من حيث الشِّكل الإيقاعي المنبري المعاصر لقصيدة التَّفعيلة الذي يُضاغ بلغة مجازيَّة تتكئ إلى المفارقات وانتقاء المفردات، في مستوى دلاليٍّ مباشر اصطلح على تسميته «السَّهل الممتنع»، قد يخدم في تهوئة النَّصِّ الشِّعري وترشيقه، لٰكنَّ الإسراف فيه أو الاكتفاء به قد يوقع الشَّاعر في نمطية، تجعل نصَّه أقلَّ إيحاءً.[2]

القصيدة المشتركة بين معين بسيسو ومحمود درويش: رسالة إلى جندي إسرائيلي..»

أمَّا القصيدة الأولى «من قصائد الحصار» فهي القصيدة المشتركة: «رسالة إلى جندي إسرائيلي..» للشَّاعرين معين بسيسو ومحمود درويش[3]. وقد كتبها بسيسو ودرويش أثناء الاجتياح الصُّهيوني الفاشي لمدينة بيروت 1982م. سطَّراها واستراحا، وظنَّا أنَّهما ماتا، فأيقظتهما البوارج من غفوتهما. ومن حقِّ معين أن يضع اسمه قبل اسم محمود على هٰذه القصيدة، لأنَّها أولًا جاءت بمبادرة منه وقامت على فكرة له يمكننا ملاحظتها في أكثر من مقال وقصيدة له من نصوص جريدة «المعركة»، وفي حين يعدُّها معين القصيدة، فإنَّ

1 - بسيسو، معين، **88 يومًا خلف متاريس بيروت**، بيروت 1985، ص29.

2 - دانيال، هادي، **جماليَّة الإدهاش التَّحريضي**... (موقع هادي دانيال)، جريدة "البعث" السُّورية، عدد الأربعاء 2009/8/5.

3 - بسيسو، معين، **88 يومًا خلف متاريس بيروت**، ص 211- 223.

درويش لم يضفها إلى أعماله، فضلًا عن أنَّ الشَّاعر بسيسو كان يريد أن يضع «حدًّا نهائيًّا بهٰذه القصيدة المشتركة لضفادع الهواء والورق، والتي لم تكفَّ عن النَّقيق ضدَّ علاقته بمحمود دوريش»[1]. وكانت هٰذه القصيدة المشتركة الأولى «في الشِّعر العربي وربَّما في الشِّعر الأجنبي» والذي فيه يكتب شاعران قصيدة".[2] وجاء في القصيدة :

"يا أيُّها المصفَّح المدرَّع المجنزر السَّجين والسَّجَّان / هل أنت في أمان؟! / وأنت خلف غابة القضبان / هل أنت في أمان؟ / إلى متى تظلُّ حاملا على أكتافك التَّابوت / يا صاحب التَّابوت / هل أنت في أمان؟ / هل أنت في أمان؟".[3]

الوطن في شعر معين بسيسو

الوطن في شعر معين سيرة شعب، قصَّة عشق وغرام، عشق معين لغزَّة وعشقها إيَّاه، ولو تأمَّلنا أعمال معين لوجدنا الوطن بكلِّ معانيه، فقد استلهم الوطن في أدقِّ معانيه، ولوجدنا الوطن قد تسلَّل إلى شعره. "البحر يحكي للنُّجوم حكاية الوطن السَّجينْ"

واللَّيل كالشَّحَّاذ يطرق بالدُّموع وبالأنينْ / أبواب غزَّة وهي مغلقة على الشَّعب الحزينْ / فيحرِّك الأحياء ناموا فوق أنقاض السِّنينْ / وكأنَّهم قبر تدقُّ عليه أيدي النَّابشينْ.....".[4]

ولا يفوتنا في هٰذا المقام أن نذكر أنَّ **"المعركة"** كانت قصيدة معين الأولى التي دعا فيها للمقاومة والكفاح، وكيف لا وهو من شعراء الثَّورة، شعراء المقاومة. وهٰكذا يخاطب معين مدينته في إباء:

1- بسيسو، معين، **88 يومًا خلف متاريس بيروت**، ص173.

2 - ويذكر أنَّه كانت **معارك طاحنة بينه وبين محمود درويش**، في المزاحمة على رضى عرفات.

3- انظر القصيدة كاملة في ملحق القصائد. ذيل الدراسة.

4 - بسيسو، معين، مارد من السَّنابل، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.

"أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاحْ / واحمل سلاحي لا يُخِفْكَ دمي يسيل من السِّلاحْ / أنا لم أمت! أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراحْ".[1]

وها هو يروي قصَّة اعتقاله في قصيدة خالدة إلى يومنا، يتغنَّى بها المعتقلون في السُّجون، نظمها والقيد في يديه عند اعتقاله على أيدي القوَّات المصريَّة:

"نعم لن نموت ولٰكنَّنا / سنقتلع الموت من أرضنا".

تجربته الاعتقاليَّة في السُّجون والمنافي

تكشف هٰذه التَّجربة عن قدرة الشَّاعر على الانطلاق من دوَّامة سجنه وإصراره على الانتصار وإثبات الذَّات، وإصراره على أن يصنع من السِّجن شيئًا يناضل به ويهدم سور الظُّلم الذي حجب الشَّمس والقمر، يقول:

"أنا المقيَّـــد لٰكنّـــي ســأنطـلق وأترك السِّجن خلفي وهو يحترق
وأخلع الكَفَن الدَّامي وقد رشحت خيــوطـه بدمـائي وهـو ينبـثـق"

يقول في المقطع الأوَّل من قصيدة: **"ثلاثة جدران لحجرة التَّعذيب"**، التي يصف فيها حياة السُّجون:

"عند طلوع الفجر/ سأقاومْ.../ ما زالَ في الجدارِ صفحةٌ بيضاءْ/ ولم تذبْ أصابعُ الكفَّينِ بعدُ...".

تغلب على قصائد معين حالة السِّجن، فيذكرها في أكثر من قصيدة، وكأنَّها تشكِّل له هاجسًا، إلَّا أنَّه في قصيدة"تحدٍّ"يذكر السِّجن ولٰكن بطريقة عنفوانيَّة، إذ يتحدَّى جلَّاده ومقيِّده، طالبًا منه الاستمرار في هٰذا العمل الإجرامي في حبسه وتعذيبه، لأنَّه غير آبهٍ بكلِّ أفعاله، فهو ابن الثَّورة وابن الشَّعب الذي لا يستطيع أحد أن يقوِّضه ويهزمه:

"أنا لا أخاف من السَّلاسل فاربطوني بالسَّلاسلْ/ من عاش في أرض الزَّلازل لا يخاف من الزَّلازلْ".[1]

1 - من ديوان المعركة.

يعود الشَّاعر لذكر حياة السُّجون في قصيدة "صليل الحبال"، معلنًا أنَّ من خلف جدرانها ستنطلق الثَّورة، ويقهر المظلومُ الظَّالمَ، ويبدو في هٰذه القصيدة تأثُّره بالفكر الاشتراكي الذي يهتم بالعمَّال والكادحين. كما تبرز في قصائده حالة نفسانيَّة تتلخَّص في خوفه من السِّجن القهري الذي رافقه منذ ريعان شبابه إلى فترات طويلة.[2]

عصرنة التَّراث في شعر معين بسيسو

تحدَّثت سناء تايه عن "**عصرنة التُّراث في شعر معين بسيسو**"[3]، فذكرت أنَّ الشَّاعر لم يقصر الحديث في إبداعه على هموم الواقع وتحدِّيات العصر وتوظيفها في عمليَّة إبداعه، وإنَّما تجاوز فعاد إلى الوراء يفتِّش في مخزونه الثَّقافي التُّراثي عمَّا يعكس هٰذا الواقع ويجلِّيه ويبرزه، ومعين بسيسو من أولٰئك الشُّعراء الذين اتَّكأوا على مخزونهم الثَّقافي، ووظَّف بعض هٰذا المخزون في كثير من نصوصه الشِّعريَّة، بهدف استنطاق الماضي بما يهمُّ الحاضر وكان له في التَّاريخ عبرة، ثمَّ يحاول أن يحدث جدلًا بين الماضي والحاضر، عن طريق تحميل الشَّخصيَّات والأحداث حمولات معاصرة، تكشف عن عمق تجربته الشِّعريَّة وتبيّن قدرته على صهر ذاك الموروث وإلقائه في أتون الواقع لاستشراف المستقبل وتحقيق النُّبوءة التي يحلم بها الشَّاعر.[4]

توظيف الشَّخصيَّات التَّاريخيَّة في شعر معين بسيسو

يعدُّ التَّاريخ منبعًا ثرًّا من منابع الإلهام الشِّعري، الذي يعكس الشَّاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤيا إنسانيَّة معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته وأحلامه، وهٰذا يعني أنَّ الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدليَّة تعتمد على التَّأثير والتَّأثُّر، تجعل النَّصَّ الشِّعريَّ ذا قيمة توثيقيَّة،

---

1 - قصيدة "تحدٍّ".

2- ميسون مصطفى، **معين بسيسو ظلَّ السِّجن يلاحقه حتى آخر رمق في حياته**، (ديوان العرب، 24 ديسمبر 2009).

3 - مواسي، فاروق، نقل وقائع **مؤتمر الأدب الفلسطيني** الثَّاني في جامعة بيت لحم.

4 - إحسان عبَّاس: **اتِّجاهات في الشِّعر العربي المعاصر**: ط2 ص120.

يكتسب بحضورها دليلًا محكمًا، وبرهانًا مفحمًا على كبرياء الأمَّة التَّليد وحاضرها المجيد، أو حالات انكسارها الحضاري ومدى انعكاسه على الواقع المعاصر. وبمعنى آخر، يستلهم الشَّاعر أوجه التَّشابه بين أحداث الماضي، ووقائع العصر وظروفه إن سلبًا أو إيجابيًّا، وهو في هٰذا كلِّه يطلق العنان لخياله لكي يكشف عن صدى صوت الجماعة، وصدى نفسه في إطار الحقيقة التاريخيَّة العامَّة التي يبحث عنها، أو الموضوعات التاريخيَّة الكبرى، التي تشكِّل حضورًا بارزًا في تاريخ الأمَّة دون الخوض في جزئيَّات صغيرة.[1]

أبو ذرٍّ الغفاريّ (الرَّمز الاشتراكي) في شعر معين بسيسو

يوظِّف معين بسيسو في قصيدته "**من أوراق أبي ذرّ**"، شخصيَّته "**أبي ذر الغفاري**"، وتظهر ملامح الرَّمزيَّة فيها[2]. يقول في أحد مفاصلها:

"وسار وحده ومات وحده وعاد،/ يصيح متُّ لم تزل،/ بقيَّة من الكلام
في فمي / نُفِيْتُ مرَّتين، مرَّة هنا، / ومرة هناك في الحديقة المعلَّقه".[3]

يسجِّل "**أبو ذرٍّ الغفاري**" هٰذه الكلمات على أوراقه بعد بعثه من جديد، ليصوِّر تناقضه مع الواقع المعيش، ويرفع صوته عاليًا في وجه الظُّلم السِّياسي والاجتماعي والاقتصادي، وقد أدَّى ذٰلك إلى نفيه مرَّتين، مرَّة في الحياة الدُّنيا زمن "**معاوية**"، ومرَّة في الحياة الآخرة "الجنَّة" بعد ضجره وسأمه من صحبة "الملائكة" الطَّاهرين الأنقياء، وكأنَّه كتب على نفسه دائمًا وفي كل مكان يحلُّ فيه أن يصلح العيوب والمفاسد الإنسانيَّة، فإذا كان المجتمع مجتمعًا "ملائكيًّا" بلا عيوب ملَّه وتركه بحثًا عن غيره ليجد فيه ضالَّته. إنَّ الثَّورة التَّصحيحيَّة التي يبتغيها جعلته يعود مرَّة أخرى ليعلن على الملأ أنَّه ما زال "بقيَّة من الكلام في فمه"، وأنَّه سيلقي بصورة عمليَّة "شَعرة معاوية في مغازل العناكب"، وهو في

1 - هرنشو: **علم التَّاريخ**. ترجمة: عبد الحميد العبَّادي. مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر. مصر.1937م. (ص3-4).

2 - حنني، زاهر الجوهر، الشِّعر الفلسطيني في الأرض المحتلَّة (1990-2000م).

3 - معين بسيسو: الأعمال الشِّعريَّة الكاملة. (ص 259-260).

مسعاه هٰذا يصحِّح علاقته بالثَّورة بعد فشله من قبل في هداية "معاوية" إلى جادَّة الصَّواب.

لا ريب أنَّ التَّماثل الدَّلالي بين حياة "**أبي ذرّ**" وحياة الإنسان الفلسطيني المعاصر، ينتج دلالات جديدة منها الثَّورة، والسَّير وحيدًا، والموت وحيدًا، والنَّفي مرَّتين، ورفض البذخ والتَّرف واكتناز الذَّهب والفضَّة، بالإضافة إلى القمع السِّياسي زمن "معاوية"، مقابل الاحتلال الصُّهيوني زمن التَّخاذل العربي. وهٰذا كلُّه جعل من شخصيَّة "أبي ذرّ" رمزًا إنسانيًّا بدأ برفضه لموقف "عثمان بن عفَّان" من أموال الغنائم، إلى اضطهاده، ثمَّ موته منفيًّا. ولهٰذا يستثمر الشَّاعر هٰذه الأبعاد ليعقد صلة بينه وبين الإنسان الفلسطيني، ويطلق صرخة احتجاج في وجه الأنظمة العربيَّة المعاصرة التي تعيش حياة ترف وبذخ. ولهٰذا أعتقد أنَّ د. خالد الكركي لم يصب عين الحقيقة عندما قال: "والإسقاط على التَّاريخ العربي واضح، وإن كان لا يتحوَّل إلى إسقاط على الواقع الحالي المباشر. فالنَّصُّ صورة فنِّيَّة لأبي ذرٍّ الغفاري الغاضب، ومثل هٰذه النَّزعة الاحتجاجيَّة الغاضبة تحدُّ من إعادة بناء الشَّخصيَّة التَّاريخيَّة دراميًّا".[1]

إذ القصيدة تتجاوز الإطار التَّاريخي، وتعقد مشابهة موحية بين "أبي ذرٍّ" من جهة، والإنسان الفلسطيني المشرَّد والمنفي من جهة ثانية، كما أنَّها تتَّخذ موقفًا تاريخيًّا من الأمراء وغيرهم الذين يكنزون الذَّهب والفضَّة في عصر "أبي ذرٍّ" وعصرنا الذي نعيش.

معين بسيسو والأدب اليهودي الصُّهيوني (معرفة الآخر)[2]

إنَّ معينًا عُني بما كان يدور حوله، وعندما كان الكثير من الأدباء العرب متحفِّظين تجاه الأدب الصُّهيوني بدعوى أن الاقتراب منه هو نوع من التطبيع، كان رأي معين أنَّنا يجب أن نعرف "هٰذا الآخر" كيف يرانا، وكيف يرى نفسه وكيف يرى العالم؟. فبعد هزيمة حزيران 1967 رفع معين شعار "اعرف عدوَّك" وعكف على قراءة الأدب الصُّهيوني المكتوب

1- خالد الكركي: الرُّموز التُّراثيَّة العربيَّة.(ص206).

2 - معين بسيسو، **نماذج من الرِّواية الإسرائيليَّة المعاصرة**، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للنَّشر 1970.

بالإنجليزيَّة، ومن ثمَّ تقديمه إلى القارئ العربي. وفي المقدِّمة التي كتبها لكتابه "نماذج من الرِّواية الإسرائيليَّة المعاصرة" (1970) يؤكِّد على أنَّ الأدب الإسرائيلي في صلب تكوينه يهدف إلى إعطاء المحارب الإسرائيلي ذٰلك الإحساس بالارتباط بالوطن.

وقد تحدَّث بسيسو عن رواية ياعيل ديَّان "ابنان للموت" وكتب قصيدة "نلقاكم في كشوف القتلى على جبهة السُّويس"[1] كصدى لقراءته لتلك الرِّواية.[2]

كذٰلك فإنَّه يظهر تأثُّر معين بسيسو بياعيل ديَّان في كتابها "مذكِّراتي الحربيَّة" وذٰلك في مسرحيَّته "شمشون ودليلة".[3]

الانحراف العقدي في شعر معين بسيسو[4]

إنَّ استعمال لفظ الجلالة في الشِّعر أمر مسموح به دينيًّا، وهو يضفي على الشعر مهابة وجلالًا وقوَّةً وعمقًا. لٰكنَّ المبالغة في ذٰلك، وتعمُّد استعمال الشَّاعر لهٰذه اللَّفظة "الله" حتَّى ليبدو ساخرًا من لفظ الجلالة لفظًا وربَّما يقصدها مضمونًا، فإنَّ في ذٰلك تعدِّيًا على حصن الدِّين الحصين لا مبرَّر له، ولو جاء ذٰلك تعبيرًا عن غضب الشَّاعر فأقحم الله في غضبه فلا يجوز ذٰلك بأيِّ وجه، خاصَّة التَّجسيم، حيث يتحدَّث الشَّاعر عن الله كجسم كباقي الأجسام ويذكر له وجهًا ويدًا ويشبِّهه بغزال تتبعه كلُّ كلاب الصَّيد. أو أنَّه يدلي بشهادته في مركز بوليس.. فهٰذا مبالغ فيه. ومع علمنا كون معين شيوعيًّا، إلَّا أنَّه حافظ على الوحدة الوطنيَّة مع الإخوان المسلمين ومع قيادة فتح. فلا يُفهم من هٰذا أنَّ معينًا قصد الإساءة إلى المعتقد الإسلامي، وإنَّما هو ثورة شاعر. يقول معين بسيسو:

"لم يبق سوى الله / يعدو كغزال أخضر تتبعه كلُّ كلاب الصيد /
ويتبعه الكذب على فرس شهباء / سنطارده، سنصيد لك الله / من

1 - بسيسو معين، نماذج من الرِّواية الإسرائيليَّة، 1970.

2 - الأسطة، عادل، الأديب الفلسطيني والأدب الصُّهيوني، منشورات شمس، 1993.

3 - معين بسيسو بين السُّنبلة والقنبلة، ص 83-85.

4- الغامدي، سعيد بن ناصر، **الانحراف العقدي في أدب الحداثةِ وفكرها**، دراسة نقديَّة شرعيَّةٌ، (لعلَّه بسبب هٰذا الانحراف العقدي تفرض حماس تعتيمًا إعلاميًّا على معين بسيسو.

باعوا الشَّاعر يا سيِّدتي / سيبيعون الله" [1]

*ويقول معين بسيسو:

"وطرقت جميع الأبواب / أخفتني عاهرة / كان الله معي / لٰكنَّ الله هنالك يدلي بشهادته / في مركز بوليس / - فُتح المحضر... / لٰكن الله ورائي كان هو المخبر" [2]

القصيدة الأخيرة لمعين بسيسو

ولعل سرَّ خلود معين بسيسو وبقاء أشعاره بين النَّاس، أنَّها أشعار وجدانيَّة ووطنيَّة صافية وصادقة وشفَّافة وواضحة نابعة من قلب الجماهير، وتصوِّر همومها وأوجاعها وآلامها، وتعالج قضاياها، وتعبِّر عن آمالها وأحلامها وتطلُّعاتها. وكان معين يرى في الشَّعب مدرسة للإلهام والإبداع الشِّعري.

والقصيدة الأخيرة التي كتبها وخطَّها يراع معين بسيسو وأبدعها خياله الشَّاعري هي ملحمة شعريَّة جميلة في ألف سطر، بعنوان "**قصيدة في زجاجة**" يقول في مقطع منها:

سَفَرٌ سَفَرْ / موج يترجمني الى كلِّ اللُّغات وينكسر / موجًا على كلِّ اللغات وأنكسر / سطرًا.. سطر / سفر.. سفر / سفن كلاب البحر أشرعة السُّفن / وطن يفتِّش عن وطن / زمن زمن / زمن تكون به وحيدًا كالفراشة في سحابة / يا من يسمِّنني بأشرعتي وأجنحتي / لسكِّين الرَّقابة / تحيى الكتابة / تحيى الرَّقابة / يحيا على فمِيَ الحجر / سفر.. سفر.

وكان معين قرأ هٰذه القصيدة، المليئة بالإيحاءات، خلال الأسبوع الثَّقافي الفلسطيني بلندن، وشارك فيه أيضًا الرَّاحل **محمود درويش وسميح القاسم**، ودغدغ بها مشاعر الجماهير وأيقظها وبثَّ الحماس فيها.

1 - بسيسو، معين، **الأعمال الشِّعرية الكاملة**: ص341.

2 - ن. م، ص 440-441.

ثبت مصادر البحث

- الأسطة، عادل. الأديب الفلسطيني والأدب الصُّهيوني. د.م: منشورات شمس، 1993.

- أبو شاور، رشاد. قراءات في الأدب الفلسطيني. د.م: دار الشروق، 2007.

- الآغـا يحيى زكريا. إضاءات في الشِّعر الفِلسطينيّ المعاصر. غزَّة: دار الحكمة، د.ت.

- خالد الكركي. الرُّموز التُّراثيَّة العربيَّة في الشِّعر الحديث. بيروت: دار الجيل، 1989م.

- حنني، زاهر الجوهر. الشِّعر الفلسطيني في الأرض المحتلَّة (2000-1990م). د.م: د.ن، د.ت.

- حسن عطيَّة جلنبو. ملامح التَّراث في شعر معين بسيسو. رسالة ماجستير. الأردن: جامعة مؤتة، 1998.

- الدِّيك، نادي ساري. ما قالته غزَّة للبحر. دراسة نقديَّة في تجربة معين بسيسو الشِّعريَّة. رام الله: وزارة الثَّقافة الفلسطينيَّة، 1998.

- عبَّاس،إحسان. اتِّجاهات في الشِّعر العربي المعاصر. ط2. د.م: د.ن، د.ت.

- معين بسيسو. بين السُّنبلة والقنبلة. كتاب لوتس. عكَّا: دار الأسوار، 1988.

----------. الأعمال الشِّعريَّة الكاملة. ط2. بيروت: دار العودة، 1981م.

----------. الأعمال المسرحيَّة. بيروت: دار العودة، 1979م.

----------. دفاتر فلسطينيَّة" . (مذكِّرات). بيروت: د.ن، 1978م.

----------. 88 يومًا خلف متاريس بيروت. بيروت: د.ن، 1985م.

----------. مارد من السَّنابل. شعر. القاهرة: دار الكاتب العربي، 1967م.

----------. الأشجار تموت واقفة. شعر. بيروت: دار الآداب، 1964م.

- محيي الدِّين صبحي. شعر الحقيقة: دراسة في إنتاج معين بسيسو. بيروت: دار الطليعة، 1982.

- هرنشو. علم التَّاريخ. ترجمة: عبد الحميد العبَّادي. مصر: مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر، 1937م.

مقالات:

- أبو شاور، رشاد. الشَّاعر معين بسيسو (مقال، موقع اللُّغة العربيَّة).
- بدرة، شامخ. معين بسيسو .....الشَّاعر الذي جمع بين الفكر التَّقدُّمي والعمل الثَّوري) الحوار المتمدِّن العدد: 2231 - 2008.
- البربري، صهباء. لذكرى معين بسيسو.
- دانيال، هادي. جماليَّة الإدهاش التَّحريضي... (موقع هادي دانيال).
- دحبور، أحمد. معين بسيسو، تونس 1986.
- ياسين، عبد القادر. معين بسيسو .. النِّضال بالشِّعر والسِّياسة، جريدة القاهرة : 14 - 02 -2012.

ملحقات

الأعمال الشِّعريَّة والأدبيَّة:

1) **المسافر**، شعر. د.م: د.ن، 1952م.
2) **المعركة**، شعر. القاهرة: دار الفنِّ الحديث، 1952م.
3) **الأردن على الصَّليب**، شعر. القاهرة: دار الفكر العربي، 1958م.
4) **قصائد مصريَّة**، مشترك، شعر. بيروت: دار الآداب، 1960م.
5) **فلسطين في القلب**، شعر. بيروت: دار الآداب، 1960م.
6) **مارد من السَّنابل**، شعر. القاهرة: دار الكاتب العربي، 1967م.
7) **الأشجار تموت واقفة**، شعر. بيروت: دار الآداب، 1964م.
8) **كراسة فلسطين**، شعر. بيروت: دار العودة، 1966م.
9) **قصائد على زجاج النَّوافذ**، شعر. د.م: د.ن، 1970م.
10) **جئت لأدعوك باسمك**، شعر. بغداد: وزارة الإعلام، 1971م.
11) **الآن خذي جسدي كيسًا من رمل**، شعر. فلسطين، بيروت: د.ن، 1976م.
12) **القصيدة**، شعر. قصيدة طويلة، تونس: دار ابن رشد، 1983م.
13) **الأعمال الشِّعريَّة الكاملة** / مجلد واحد. بيروت: دار العودة، 1979م.
14) **آخر القراصنة من العصافير**، شعر. د.م: د.ن، د.ت.
15) **حينما تمطر الأحجار**، شعر. د.م: د.ن، د.ت.

الأعمال المسرحيَّة:

1) **مأساة جيفارا**.
2) **ثورة الزُّنج**.
3) **الصَّخرة**.
4) **العصافير تبني أعشاشها بين الأصابع**.
5) **محاكمة كتاب كليلة ودمنة**.

6) **شمشون ودليلة**، 1970م.

الأعمال النَّثريَّة:

1) **نماذج من الرِّواية الإسرائيليَّة المعاصرة**. القاهرة: د.ن، 1970م.
2) **باجس أبو عطوان**. قصَّة. بيروت: فلسطين الثَّورة، 1974م.
3) **دفاعًا عن البطل** . بيروت: دار العودة، 1975م.
4) **البلدوزر**. مقالات. د.م: مؤسَّسة الدِّراسات، 1975م.
5) **دفاتر فلسطينية**. مذكرات. بيروت: د.ن، 1978م.
6) **كتاب الأرض**. رحلات. بيروت: دار العودة، 1979م.
7) **أدب القفز بالمظلَّات**. القاهرة: د.ن، 1982م.
8) **الاتِّحاد السُّوفييتي لي**. موسكو: د.ن، 1983م.
9) **88 يومًا خلف متاريس بيروت**. بيروت: د.ن، 1985م.
10) **عودة الطَّائر**. قصة. د.م: د.ن، د.ت.
11) **وطن في القلب**. شعر مترجم إلى الرُّوسيَّة. موسكو: د.ن، د.ت.
12) **يوميات غزَّة**. القاهرة: د.ن، د.ت.

بسيسو في الأدب العالمي

ترجم أدبه إلى اللُّغات: الإنجليزيَّة والفرنسيَّة والألمانيَّة والرُّوسيَّة، ولغات الجمهوريَّات السُّوفياتيَّة؛ أذربيجان، أوزبكيَّة، والإيطاليَّة والإسبانيَّة واليابانيَّة والفيتناميَّة والفارسيَّة.